من الأسرار البلاغية فى قصيدة جليلة بنت مرة فى رثاء زوجها كليب بن وائل

د/ أمينـــة سليـــم
استاذ البلاغة والنقد المساعد
ورئيس قسم البلاغة والنقد
كلية الدراسات الاسلامية والعربية
للبنات - بالاسكندرية

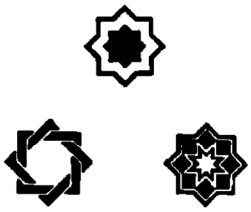

بسم الله الرحمن الرحيم

كنت قد قرأت قصيدة الرثاء للشاعرة الجاهلية «جليلة بنت مرة» منذ زمن بعيد فهزت بداخلى مشاعر الألم والحزن، بما لقيته من قوم زوجها، وقد صورت ذلك بشعرها الفطرى وأحاسيسها المرهفة الحزينة، ولغتها الجزلة القوية فسطرت مشاعر الألم والفقد فى أبيات قليلة لكنها معبرة أصدق تعبير عما بداخلها وما تعانيه من فقد عزيزين لديها، فقد روعت بفقد زوجها كليب أولا، وبالتأكيد ستفقد أخاها عما قريب أخذاً بالثأر جرياً على عادة العرب.

ظلت هذه المشاعر حبيسه بداخلى إلى أن فجرتها الانتفاضة الفلسطينية فى مواجهة العدو الاسرائيلى وما نراه يومياً على شاشة التلفاز من بحار الدم، وما نسمعه من النسوة الثكالى وهن يبكين الزوج والاخ والابن والاب وكل عزيز لديهن، وهذا ما فجر عندى الميل للكتابة فى هذا الموضوع. فوقع اختيارى على رثاء «جليلة بنت مرة» زوجة كليب سيد ربيعة وأخت جساس قاتله، وكانت شاعرة. فصيحة، ولكن ما وصل إلينا من شعرها قليل، وهو أمر طبيعى فشعر النساء قليل فى تاريخ الشعر العربى القديم، وأكثره كان يجرى على ألسنتهم فى مناسبات عارضة، ولم يعرف تاريخ هذا الشعر إلا عدداً قليلاً من الشواعر.

وتعد «جليلة بنت مرة» أقدم شاعرة عرفها الشعر العربى، فهى من عصر البسوس الذى شهد البداية المبكرة للشعر الجاهلى، فقد سبقت الخنساء وعاصرت المهلهل بن ربيعة الذى ينسب إليه أولية هذا الشعر، وأكثر شعرها يدور حول بكاء زوجها وتصوير مأساتها التى عاشتها بعد مصرعه.

عاشت جليلة زوجة لكليب حتى إذا ما لقى مصرعه على يد أخيها، لم تجد بداً بعد فترة من التردد والتفكير من أن ترحل إلى قومها، وقضت ما بقى لها من أيام عند أخيها جساس حتى قتل، فمضت تتنقل مع قبيلتها شيبان على امتداد ساحات القتال واختلاف ميادينه حتى ماتت، وربما كان ذلك على ما يظن بعض الباحثين حوالى ٥٤٠ ميلادية[١].

الرثـــاء

الرثاء فن من فنون الشعر وهو الوجه الآخر للمديح لكن تسبقه كلمة «كان».

فبكاء الميت والتغنى بفضائله، واظهار اللوعة والأسى على فراقه تبيان لخسارة القوم بوفاته، ولكن شعر الرثاء فى مجموعة شعر الأيام هو صورة من الفخر والحماسة فى تلك الحروب، ولا نجد فى رثائهم من التفجع والتوجع للقتيل إلا ما جاء على ألسنة النوائح أو نسوة القتيل من أهله كزوجه أو أمه أو شقيقته، وحتى أولئك النسوة كن يتجلدن ولا يظهرن الجزع والحزن لأن القتيل مات فى ساحة الشرف دفاعا عن قبيلته وعن عرضه وحماه[٢].

وكان مقتل فارس من فرسان القبيلة يُعد كارثة لها لأنها فقدت شجاعته وقوته، كما أنها فقدت مثلاً يحتذى فى الفروسية، ويقف الشاعر عندها يرثى هذا الفارس ويبين أثره فى قبيلته، ثم يُقسم بأنه ليثأرن لمقتله[٣].

---

(١) الروائع من الأدب العربى ص ٨٧ د/ يوسف خليف.
(٢) الشعر وأيام العرب فى العصر الجاهلى ص ٢٨١ د/ عفيف عبد الرحمن.
(٣) المصدر السابق ص ٢٨٢.

وكان مقتل كليب بداية حرب البسوس الطويلة بين حيٍّ ربيعة ويذكر الدكتور شوقى ضيف[1] أن حرب البسوس قد اشتعلت بين قبيلتى بكر وتغلب فى أواخر القرن الخامس الميلادى وكان سببها اعتداء كليب سيد تغلب وكان قد طغى واشتد بغيه على ناقة البسوس خالة جساس بن مرة سيد بنى بكر، إذ رمى ضرعها بسهم فاختلط لبنها بدمها، ولما علم جساس بما حدث ثار لكرامته، وسنحت فرصة من كليب فقتله، ودارت رحى حرب طاحنة ظلت – فيما يقال – أربعين سنه فكثرت أيامها مثل يوم عنيزة وكان سجالا بين الطرفين، ويوم واردات وكان لتغلب على بكر ويوم قضة «تحلاق اللمم» وفيه انتصرت بكر، ولما أنهكت الحرب الفريقين لجأ إلى الحارث بن عمر الكندى فأصلح بينهما، وأقام على بكر ابنه شرحبيل، وعلى تغلب ابنه سلمة، ونمت فى العصور الاسلامية أساطير حول هذه الحرب وبطلها التغلبى المهلهل أخى كليب، وألفت عنه قصة شعبية باسم «الزير سالم».

(١) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى ص ٦٥، ٦٦ د/ شوقى ضيف.

نفس حائزة بين شقى الرحى

هى «جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان البكرية» زوجة كليب سيد ربيعة، وأخت جساس قاتل زوجها وكانت شاعرة فصيحة ذاعت شهرتها فى رثاء زوجها بقصيدة تعد من عيون الرثاء فى الشعر العربى صورت فيها مأساتها التى عاشتها كامرأة بدوية عربية ليس لها من الحلول ما تستطيع أن تقدمه سوى هذه الزفرات والعبرات المرة التى صدرت عن نفس اعتصرها الحزن والألم ومرارة الفقد.

فهذه القصيدة تصور الحالة النفسية الدقيقة لمأساة الشاعرة «جليلة بنت مرة» بعد مصرع زوجها، لقد قتل كليب بسهم جساس، وروعت المنطقة كلها لمصرعه وأسرع المهلهل من دنياه اللاهية ليحمل على عاتقه عبء معركة الثأر الضارية التى بدأت نذرها فى الأفق القريب، واستعدت القبيلة للصراع الرهيب الذى ينتظرها، ووقعت جليلة الحزينة بين شقى الرحى تعانى صراعاً نفسياً عنيفاً، لقد قتل أخوها زوجها، واستعد أخوه لقتال قومها، فلم تدر ما تفعل، ولم تستطع فى غمرة الصدمة وهول الفاجعة أن تحدد موقفها: أتبقى مع قوم زوجها وفاء لذكراه وحفاظاً على عهده، أم تلحق بقومها نجاة بنفسها من الموقف الصعب الذى وضعها أخوها فيه؟ وفى مأتم كليب اجتمعت نسوة من الحى، وطلبن إليها أن ترحل عنه، وأغلظن لها القول، وقلن لأخت كليب، رحلى جليلة عن مأتمك فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب.

وقضت جليلة فترة من الزمن تعانى صراعاً نفسياً طاحناً بين البقاء والرحيل، ثم حسمت أمرها وقررت أن ترحل إلى قومها حتى تنجو من

العاصفة العاتية التى أوشكت أن تعصف بالقبيلة ورحلت جليلة فى حالة نفسية سيئة، وقالت لها أخت كليب: رحلة المعتدى وفراق الشامت، ويل غداً لآل مرة من الكرة بعد الكرة! فقالت جليلة: وكيف تشمت الحرة بهتك سترها وترقب وترها؟ أسعد اللى جد أختى، أفلا قالت: نفرة الحياء، وخوف الاعتداء[١].

وعلى مشارف الحى لقيها أبوها، فقال لها: ما وراءك يا جليلة؛ فقالت: ثكل العدد، وحزن الأبد، وفقد حليل وقتل اخ عن قليل، وبين ذين غرس الأحقاد، وتفتت الأكباد فقال لها: أو يكف ذلك كرم الصفح واغلاءُ الديات؟ فقالت: أمنية مخدوع ورب الكعبة، أبا لبدن تدع لك تغلب دم ربها؟ ثم فزعت إلى شعرها تصور فيه مأساتها الحزينة ومشكلتها التى لا تجد لها حلاً، فكانت هذه الأبيات.

وهى أبيات تتراءى كأنها قطعة أثرية نادرة، ويرجع تاريخها إلى أقدم عصور الشعر العربى، إلى المرحلة المبكرة التى شهدت أولية هذا الشعر وميلاد القصيدة العربية وترجع أهميتها إلى أنها من أقدم النصوص التى وصلت إلينا من الشعر الجاهلى، ولعلها أقدم نص نسائى لشاعرة عربية وصل إلينا، وقد استطاعت الشاعرة أن تعكس فيه طبيعتها الأنثوية فى صدق واخلاص، وأن ترسم صورة معبرة عن مشاعر زوجة فقدت زوجها فى ظروف بالغة الحساسية[٢] وأن تقدم جوانب المأساة الحزينة التى تعيشها تتجاذبها انفعالات متضاربة، ثم تلقى بها. وفى النهاية بين شقى الرحى فلنسمع إلى جليلة وهى تقول:

(١) الروائع من الأدب العربى ص ٨٨ د/ يوسف خليف.
(٢) الروائع من الأدب العربى ص ٨٩ د/ يوسف خليف.

١ يا ابنة الأقوام إن لمت فلا — تعجلى باللوم حتى تسألى
٢ فإذا أنت تبينت الذى — يوجب اللوم فلومى واعذلى
٣ إن تكن أخت امرئ ليمت على — جزع منها عليه فافعلى
٤ جل عندى فعل جساس فيا — حسرتى عما انجلى أو ينجلى
٥ فعل جساس على وجدى به — قاطع ظهرى ومدن أجلى
٦ لو بعين فقئت عينى سوى — أختها فانفقأت لم أحفل
٧ تحمل العين قذى العين كما — تحمل الأم أذى ما تفتلى
٨ أيتم المجد كليب وحده — واستوى العالى معا بالأسفل
٩ من لحكم الناس فى حيرتهم — وقرى الأضياف يوم البُزَّل
١٠ ولإصلاح وإفساد معا — فى صدى الرمح ورى المنصل
١١ يا قتيلا قوض الدهر به — سقف بيتى جميعاً من على
١٢ هدم البيت الذى استحدثته — وانثنى فى هدم بيتى الأول
١٣ ورمانى قتله من كثب — رمية المصمى به المستأصل
١٤ يا نسائى دونكن اليوم قد — خصنى الدهر برزء معضل
١٥ خصنى قتل كليب بلظى — من ورائى ولظى مستقبلى
١٦ ليس من يبكى ليومين — كمن يبكى ليوم ينجلى
١٧ يشتقى المدرك بالثأر وفى — دركى ثأرى ثكل المثكل
١٨ ليته كان دمى فاحتلبوا — بدلا منه دما من أكحلى
١٩ إننى قاتلة مقتولة — ولعل الله أن يرتاح لى

اللوحة الأولى

١- يا ابنة الأقوام إن لمت فلا — تعجلى باللوم حتى تسألى
٢- فإذا أنت تبينت الذى — يوجب اللوم فلومى واعذلى
٣- إن تكن أخت امرئ ليمت على — جزع منها عليه فافعلى

☆ هذه الأبيات تمثل اللوحة الأولى لدى الشاعرة فنراها تستهل قصيدتها فى رثاء زوجها ببراعة استهلال توجهه لأخت كليب مخاطبة إياها بقولها «يا ابنة الأقوام» لملمت فيها مشاعر تصدر عن نفس جزعة تعانى صراعاً نفسياً عنيفاً، وتحاول أن تغلب العقل على العاطفة فى أسلوب إنشائى طلبى وهو النداء الغرض منه الالتماس والصفح، ثم تتبعه بأسلوب شرط وجوابه الغرض منه التمهل والتعقل وعدم السرعة فى اللوم حتى تصل إلى الحقيقة، وتختم هذه الأبيات بأسلوب حكيم يعد من مجاراة الخصم.

☆ البلاغة والنقد

فى البيت الأول تبدأ الشاعرة بأسلوب إنشائى طلبى ففى قولها «يا ابنة الأقوام» نداء خرج إلى غرض بلاغى هو الرجاء والاستعطاف، وقولها «الأقوام» دون الناس أو قوم أو ندائها بأخت كليب أو يا أختى يرفع من شأنها وقدرها لأن كلمة «الأقوام» لها دلالة قوية فى علو النسب ورفعة الشأن، كما أن إضافة «إبنة إلى الأقوام» المعرفة بالألف واللام إضافة تكريم وتشريف واستعمال ياء النداء وهى للبعيد مع أن المخاطبة قريبة منها، ولذلك كانت لها دلالة نفسية عند الشاعرة لأن الياء تدل على البعد النفسى والاحساس البالغ بالمصيبة، وفى الياء فسحة زمنية لالتقاط الأنفاس، تتنفس فيها الشاعرة زفرة الألم المكتومة فى صدرها بدلاً من استخدامها الهمزة الموضوعة للقريب وزمنها قصير.

كما أن أسلوب الشرط وجوابه فى قولها «إن لمت فلا تعجلى باللوم حتى تسألى» له خصوصية يختلف فيها عن طبيعة الوظيفة فى أساليب الشرط الأخرى حيث دخلت إن الشرطية على الماضى فى قولها «إن لمت» وكان

حقها أن تدخل على المضارع لأن الأصل فيها ألا يكون الشرط مقطوعاً بوقوعه[١]. ونرى الخطيب القزوينى يقول فى هذا الموضوع «أما القطع بعدم وقوعه لاستحالته فلا تستعمل فيه «إن» إلا لنكتة بلاغية كما فى قوله تعالى: «قل إن كان للرحمن ولد»[٢].

وقال الزمخشرى: فى هذا الموضع، الماضى وإن كان يجرى فى باب الشرط مجرى المضارع فى علم الإعراب فإن فيه نكته[٣]. وأن الافعال «تبينت، يوجب، لومى، واعذلى» غرضها البلاغى التجدد والحدوث لأحزانها، فالماضى يجرى مجرى المضارع. كما نجد أن جواب الشرط أسلوب إنشائى طلبى وهو النهى فى قولها «فلا تعجلى» أى لا تتعجلى باللوم والغرض البلاغى منه الرجاء والاستعطاف.

كما أن فى قولها «حتى تسألى» وحتى تستعمل فى انتهاء الغاية، والغرض البلاغى منه استقضاء أو استنفاذ البحث.

والتقصى فى تحرى الأسباب الدقيقة لما حدث، فلم أكن أتمنى ذلك، ومما يقوى هذه الفكرة دخول «حتى» على الفعل المضارع الذى يفيد التجدد والحدوث. وفى البيت الثانى تبدأه بأسلوب شرط وجوابه فى قولها:

فإذا أنت تبينت الذى يوجب اللوم فلومى واعذلى

فجملة فعل الشرط «فإذا أنت تبينت» إذا ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه، منصوب بجوابه، وأنت فاعل بفعل محذوف يفسره ما بعده،

(١) الإيضاح ص ٥٤ وانظر بغية الايضاح جـ ١ ص ٨٦ عبد المتعال الصعيدى.
(٢) سورة الزخرف آية ٨١.
(٣) الإيضاح ص ٨٦ وانظر بغية الايضاح جـ ١ ص ١٩٧.

والتقدير «فإذا تبينت أنت تبينت» لأن إذا الشرطية يختص دخولها بالجمل الفعلية، وهذا الفعل يجب حذفه، لأنه لا يجمع فى الكلام الفصيح بين المفسر والمفسر.

ثم استعملت فعلى الأمر «فلومى واعذلى» أسلوب إنشائى طلبى غرضه البلاغى الالتماس فى عدم التسرع باللوم أو بالقطيعة.

وفى البيت الثالث تبدأ الشاعرة بأسلوب الشرط وجوابه فى قولها:

إن تكن أخت امرئ ليمت على جزع منها عليه فافعلى

فقد استعملت إن الشرطية فى موقعها حيث دخلت على المضارع «تكن» لتجدد وحدوث اللوم والجزع والحزن.

يقول الخطيب القزوينى[1]: وقد تستعمل «إن» فى مقام القطع بوقوع الشرط لنكتة، كالتجاهل لاستدعاء المقام إياه، فالفرض البلاغى فى هذا الشرط هو التجاهل والاستعطاف، وقد وفقت أيضاً فى استخدامه كأسلوب حكيم يعد من مجاراة الخصم، وفيه أيضاً تجاهل العارف.

وفى قولها «أخت امرئ» نكرة تستعمل للعموم والشمول، وقد جاءت لضرب المثل.

وفى قولها «على جزع منها» نتيجة للمصيبة الموجعة التى حدثت لها.

وأما جواب الشرط فى قولها «فافعلى» هو أسلوب انشائى طلبى أمر الغرض البلاغى منه الرجاء والاستعطاف التى أكدته الفاء العاطفة فى إفادتها الترتيب مع التعقيب.

---

(١) الايضاح ص ٥٤ وانظر بغية الايضاح جـ ١ ص ١٨٩ الشيخ عبد المتعال الصعيدى.

وفى جواب الشرط إيجاز بالحذف وتقديره «فافعلى بى ما يتراءى لك» فلن تجدى منى أى اعتراض على ما تصنعيه بى.

وقد استخدمت الشاعرة الأفعال «تكن، ليمت، فافعلى» وهى أفعال تفيد التجدد والحدوث وإثارة الأحزان، مما أسهم فى علو القيمة الفنية التى تحوى أساليب جزئية وكلية متعددة، أكملت الأحاسيس المختلفة فى ذهن المتلقى وأبرزتها بشكل واضح، فقد عايشنا الشاعرة لحظة بلحظة.

اللوحة الثانية:

٤- جل عندى فعل جساس فيا حسرتى عما انجلى أو ينجلى
٥- فعل جساس على وجدى به قاطع ظهرى ومدن أجلى
٦- لو بعين فقئت عينى سوى اختها فانفقأت لم أحفل
٧- تحمل العين قذى العين كما تحمل الأم أذى ما تفتلى

فى هذه الأبيات تناجى الشاعرة نفسها، وتتصبر على مصيبتها، وقد اتخذت طريقة المناجاة طريقاً تعبر فيه عما بداخلها من شعور الحسرة والألم، وتنعى فيه على فعل أخيها وما يترتب عليه من عواقب أليمة ظهرت أو ستظهر.

وما زالت «جليلة بنت مرة» حزينة على ما فعله أخوها جساس، فهو لابد قاصم ظهرها وكاشف سترها ومقربها من الموت، ولذلك نجدها قد استخدمت أساليب خبرية.

وكم كانت تتمنى لو أن إنساناً آخر غير جساس قد فعل ما فعله، ولذا استعملت «لو» وهى أداة تمنى مجازية، وهى تفترض فرضاً آخر لو أن عينها فقئت بعين غريبة لهان الخطب، ومن هنا تأتى مشكلتها، ويحتدم الصراع

النفسى الداخلى لديها.

ثم تردف الشاعرة هذا بقولها: إن العين تحمل ما تصيبها من أجسام غريبة تسقط فيها وتتحملها مجبرة عليها لأنها وضعت فى أعماقها على غير ارادة منها، وتشبيه مأساتها بهذا التشبيه راغمة بما تحمله الأم من أذى ما تربيه من أطفال صغار لا يدركون من أمرهم شيئاً.

وهو تشبيه يحمل مرارة النفس على حزن عنيف وليس فى مقدورها أن تفلت منه، فهو أشبه بضربة لازب.

☆ البلاغة والنقد

تستهل الشاعرة هذه الأبيات بمناجاة تبث فيها همها وحزنها ولهفة نفسها بقولها: «جل عندى فعل جساس» فنجدها تقدم الظرف فى قولها «عندى» ثم تضيفه إلى ضميرها، والغرض البلاغى منه الاهتمام والتخصيص بالمصيبة التى حلت بها.

أما قولها: «فياحسرتى عما انجلى أو ينجلى» فهو نداء خرج إلى التحسر الذى يقطر ألماً من فداحة المصاب على الذى صرع، وما ينتظرها من مصرع وفقد أخ عزيز لها كانت تعده للزمن فى مقتبل أيامها، وفى استخدامها المادة اللغوية «انجلى وينجلى» جناس اشتقاق وهما كنايتان عما حدث وسيحدث، وفى قولها «جل وانجلى وينجلى» تفيد تجدد الألم والحزن وحدوثه مرة بعد مرة فهى فى حزن مستمر.

والأسلوب خبرى وكأنها تحدث نفسها أو تعبر عما يدور فى خاطرها بصوت عال.

وفى قولها «على وجدى به» أى مع وجدى به أى حزنى، وفى قولها «قاطع ظهرى ومدن أجلى» مجاز عقلى علاقته السببية حيث أسندت ما فعله جساس إلى ما أصابها من ألم، وكناية عن موتها كمدا وكلها أساليب خبرية.

وقد أضافت إلى ضمير المتكلم فى قولها «وجدى وظهرى وأجلى» إضافة غرضها البلاغى الإيجاز لضيق المقام والتخصيص والمناسبة الأليمة.

وفى البيتين السادس والسابع تقول:

لو بعين فقئت عينى سوى اختها فانفقأت لم أحفل
تحمل العين قذى العين كما تحمل الأم أذى ما تفتلى

تبدأ الشاعرة البيت بأسلوب تمنى مجازى وهو «لو» يتناسب مع المقام، فقد أصابت باستعمالها هذه الأداة موضعين، التمنى وهو غير مقطوع بحصوله وكونها أداة شرط أفادت امتناع الجواب لامتناع الشرط لأنها غير جازمة مما أكد الفكرة التى تسعى إليها.

كما عبرت «بعين» وهى نكرة تفيد العموم والشمول، ونجد فى «فقئت، فانفقأت» بينهما جناس اشتقاق ففقد العين أظهر الحالة النفسية لدى الشاعرة.

وفى قولها «فقئت عينى» كناية عن مقتل كليب. وفى قولها «سوى اختها» كناية عن الغريب. وفى قولها «بعين وعينى» جناس اشتقاق يظهر الفكرة لأن العين أغلى شئ فى حواس الإنسان. والتشبيه بين الصورتين فى قولها:

تحمل العين قذى العين كما تحمل الأم أذى ما تفتلى

فالصورة فى هذا التشبيه مناسبة موفقة حيث لا اختيار لهما فقد عبرت الشاعرة عما أصابها أصدق تعبير، والتشبيه هنا من قبيل التشبيه التمثيلى، حيث شبه هيئة العين وهى تحمل قذاها بهيئة الأم وهى تحمل أذى ما تربى من أبناء صغار، ويوجد بين قذى وأذى جناس ناقص.

وفى تكرار العين، توكيد لفظى ومعنوى يفيد تأكيد المعنى الذى تسعى إلى ابرازه الشاعرة «جليلة بنت مرة».

اللوحة الثالثة

٨- أيتم المجد كليبٌ وحده واستوى العالى معا بالأسفل
٩- من لحكم الناس فى حيرتهم وقرى الأضياف يوم النُزّل
١٠ ولا صلاح وإفساد معا فى صدى الرمح ورى المنصل

وهذه الأبيات تشتمل على مكارم الأخلاق لكليب الذى فقدته الشاعرة، فقد كان سيداً فى قومه كريماً جواداً فارساً حامى العشيرة والقبيلة بكل مقاييس الأخلاق العربية الأصيلة، وبفقده أصبح المجد يتيماً واستوى العالى بالأسفل معا، وتعدد الشاعرة مناقب زوجها الفقيد فتقول: فى أسلوب استفهام غرضة التعظيم «من لحكم الناس فى حيرتهم» بعده حيث إنه كان يحكم الناس بالعدل والمساواة وأنهم يعلمون ذلك، وهو قائد خبير بفنون القتال فهو يعرف متى يضع الرمح الظامئ لدماء الأعداء، ومتى يرفع السيف بعد ارتوائه من الدماء.

البلاغة والنقد

٨- أيتم المجد كليب وحده واستوى العالى معا بالأسفل

فى هذا البيت تقول الشاعرة فى براعة استهلال ممتازة «أيتم المجد كليب وحده» قدمت فيها «المجد» وهو المفعول على الفاعل، بحيث لا يتجاوزه

إلى غيره أصلاً، والغرض البلاغى الاهتمام وابراز شجاعة كليب الذى جعل المجد يتيماً، وجملة «كليب وحده» وحده أى منفرداً وهو حال من الفاعل «كليب» وفيها تعظيم يستفاد من السياق حيث إن بفقده صار المجد يتيماً، والمجد ليس شيئاً بسيطا وإنما شئ عظيم يشار إليه بالبنان، وفيها أيضاً كناية.

كما نجد فيها استعارة حيث شبه «المجد» بابن مات والده، وحذف المشبه به وأبقى على صفة من صفاته وهى «أيتم» على سبيل الاستعارة بالكناية.

وفى قولها «واستوى العالى معا بالأسفل» طباق أكد على صفة الكرم عند كليب، وفيها إيجاز قصر.

٩- من لحكم الناس فى حيرتهم وقرى الأضياف يوم البزل

تؤكد «جليلة بنت مرة» على سيادة زوجها كليب، وقيامه على أمور عشيرته، فتبدأ البيت باستفهام غرضه التعظيم والتوكيد على رجاحة عقله ورزانته ويفيد تخصيصه به فى قولها «من لحكم الناس فى حيرتهم» أى لا يوجد غيره يقدر على هذا، وقد فقدناه فمن سيقوم بفض المنازعات بين القبائل، وفى قولها «وقرى الأضياف يوم البزل» فالواو أشركت الاستفهام الذى يفيد التعظيم من الشطر الأول إلى الشطر الثانى، فتكون العبارة «من لقرى الأضياف يوم البزل» استفهام يؤكد على كرم كليب وجوده ويفيد تخصيصه به بعد فقده.

والبيت كله كناية عن رجاحة عقله ورزانته والمضياف الموصوف بالكرم والجود خصوصاً يوم نحر النوق البزل التى بلغت من عمرها التاسعة، ومن سواه سينحر للأضياف وفيه تخصيص به، كما نجد بين «القرى

والأضياف والبزل» علاقة تلازم تؤكد هذا التخصيص.

وبين الشطرين فى هذا البيت مراعاة نظير لأنها من باب الصفات، فالأول فى رجاجة عقله وعدله بين الناس، والثانى فى كرمه وجوده.

١٠- ولإصـــلاح وإفســـاد معـــا فى صدى الرمح وري المنصل

وقد أشركت «الواو» الاستفهام فى البيت السابق على هذا البيت لتؤكد على صفتى العدل والشجاعة، وبهذا تكتمل صفات كليب وهى الصفات العربية الأصيلة. ونجد «بين إصلاح وإفساد» طباق يؤكد سيادة زوجها على قومه وعشيرته، وفى «صدى وري» طباق. كذلك بين «صدى وري» وبين «الرمح والمنصل» علاقة تلازم ومراعاة نظير، وفى «صدى الرمح» كناية عن تعطشه للدماء، وفى «ري المنصل» كناية عن رفعه السيف بعد ارتوائه من الدماء فتؤكد شجاعته.

وبين البيت والبيت الذى قبله مراعاة نظير.

اللوحـــة الرابعـة

١١- يـا قتيـلا قـوض الدهـر بـــه سقف بيتى جميعاً من عل
١٢- هدم البيـت الـذى استحدثته وانثنـى فـى هـدم بيتـى لأول
١٣- ورمـــانى قتلـــه مـــن كثـــب رمية المصمى بـه المستأصل

فى هذه الأبيات يحتدم الصراع النفسى لدى الشاعرة «جليلة بنت مرة» وتعود فتخاطب نفسها فى مرارة وأسى، وتفيق من صدمتها إلى مصيرها المجهول وفى نبرة حزينة تنعى حظها ونفسها وماضيها وحاضرها لفقدها هذا الزوج الذى كان سيد العشيرة رئيساً لقبيلته، فتناديه بذل واستعطاف وتقول:

يـا قتيـلا قـوض الدهـر بـــه سـقف بيتـى جميعـاً مـن علـى

فالدمار والخراب الذى حل ببيتها جميعاً فجعل أعلاهما أسفل، فهدم البيت الجديد الذى أنشأته مع زوجها وأولادها، ثم انثنى فى هدم بيتى القديم وتقصد بين أسرتها، عندما يقتص بالثأر من أخيها جساس فمصرع زوجها كليب كان سهماً مصوباً إليها عن قرب فقتلها فى الحال واستأصل كل شئ جميل فى حياتها من جذوره فاقتلعه.

البلاغة والنقد

تبدأ الشاعرة بنبرة حزينة تنعى فيها نفسها وما حدث لزوجها فى مناجاة وتعزية فى مصابها الأليم فتقول:

يا قتيلا قوض الدهر به سقف بيتى جميعاً من عل

فالنداء هنا خرج لغرض بلاغى هو التحسر والألم، كما أن استخدامها الياء للنداء دون أداة أخرى تحتمل دلالتين:

الأولى: لبعد الفقيد عنها برحيله.

الثانية: إن الياء فيها فسحة زمنية لالتقاط الأنفاس واخراج زفرات النفس الحزينة حتى تملأ بها التجويف الصدرى، والتعبير بالقتيل دون اسمه يوحى بفداحة الخطب الذى ملأها حزناً وأسى.

ثم تردفه بمجاز عقلى فى قولها «قوض الدهر به سقف بيتى جميعاً من عل» علاقته السببية، فقد أسندت الهدم للدهر وهو إسناد غير حقيقى، حيث إن هذه المحنة كانت من الله ولم يكن الدهر فاعلاً حقيقياً لها وفى قولها «بيتى جميعاً من عل» كناية عن بيتها الجديد وهو بيت زوجها، والثانى كناية عن بيت أسرتها «ومن عل» كناية عن الدمار الذى حل بهما جميعاً.

وفى قولها «بيتى جميعاً» إجمال ثم جاء التفصيل فى البيت التالى فى قولها «هدم البيت الذى استحدثته وانثنى فى هدم بيتى الأول».

وفى قولها «استحدثته والأول» شبه طباق تقصد به الجديد والقديم، وهناك مجاز عقلى فى اسناد الهدم إلى الدهر مرتين فى قولها «هدم البيت الذى استحدثته وانثنى فى هدم بيتى الأول» علاقته الزمانية.

وفى قولها «هدم البيت» معرفا بالألف واللام لأنه حادث وجديد بالنسبة لها، أما فى قولها «بيتى الأول» جاء معرفاً بالإضافة إلى ضميرها فكأنه بها ألصق وأعرف من البيت الذى عرفته بالألف واللام، وله خصوصية ملكية أكبر، فهو البيت الذى تلجأ إليه فى المصائب والملمات كما حدث لها.

والتعرف بالإضافة أخصر طريق وأبلغه لخصوصية أرادت الشاعرة أن تشرك معها المخاطب فى شعورها النفسى الحزين وأن يستحضر معها الصورة.

وفى قولها:

ورمانى قتله من كثب رمية المصمى به المستأصل

فيه إسناد الرمى إلى القتل، مجاز عقلى علاقته السببية، حيث أسند الفعل إلى غير فاعله الحقيقى ونجد بين «رمانى رمية» جناس اشتقاق غرضه البلاغى إيقاظ الحواس.

وفى اسم المرة «رمية واحدة» لكنها أصابت فى مقتل خصوصاً أنها كانت عن قرب.

وهناك تشبيه تمثيلى بين الصورتين، حيث شبه قتله فى فداحة ما ترتب عليه، برمى المصمى المستأصل، والتشبيه يوحى بالدمار والخراب الذى اجتث كل شئ جميل فى حياتها. والتعبير بالأفعال يفيد تجدد وحدوث الأسى والحزن مرة بعد مرة.

اللوحة الخامسة

١٤ يا نسائى دونكن اليوم قد خصنى الدهر برزء معضل

١٥ خصنى قتل كليب بلظى من ورائى ولظى مستقبلى

١٦ ليس من يبكى ليومين كمن يبكـــى ليـــوم ينجلـــى

تخاطب «جليلة بنت مرة» نسوة الحى فى استعطاف وضعف فتقول: إن الدهر قد خصنى اليوم دونكن بمصيبة ليس لها حل، فهى تدعوهن للوقوف بجانبها ومواساتها فى مصابها الأليم ومشاركتها فيه، ثم تتبع ذلك بقولها: إنها اكتوت بنار قتل كليب، وهذا ما عبرت عنه بلظى من ورائى ولظى المستقبل قتل أخيها جساس.

وفى ختام هذه الأبيات تقول «إن من يبكى ليومين ليس كمن يبكى ليوم ينجلى وينكشف، فهى موعودة بالعذاب والألم من أجل ذلك، فاليومان هما فقد الزوج والاخ، فقد طعنتها الأيام طعنة قاتلة، بخلاف من تبكى مرة واحدة ثم تتكشف الغمة.

البلاغة والنقد

١٤ يا نسائى دونكن اليوم قد خصنى الدهر برزء معضل

فى البيت نجد الشاعرة «جليلة بنت مرة» تخاطب النسوة باسلوب إنشائى طلبى نداء خرج إلى الرجاء والاستعطاف، وقولها «يا نسائى» إضافتها إلى ياء المتكلم إضافة تحنن وتوسل علهن يواسينها فى مصابها الأليم.

وفى قولها «قد خصنى الدهر» نجد أن دخول «قد» على الفعل «خصنى» يفيد تحقيق وقوعه، وفى «خصن الدهر» مجاز عقلى علاقته الزمانية حيث أسند الفعل إلى غير فاعله الحقيقى، كما نجد بين «اليوم والدهر» مراعاة نظير، ويمكن أن يكون فى قولها: «خصنى الدهر برزء معضل» استعارة فقد شبهت الدهر بإنسان من خصائصه ولوازمه أن يعطى ويمنع، ويخص إنسان دون غيره، فهو ليس عطاء عادياً وإنما خصوصية العطاء مصيبة ليس لها حل، وحذف الإنسان وأبقى على صفة من صفاته على سبيل الاستعارة المكنية فى الفعل «خص».

وفى البيت الخامس عشر:

١٥ خصنـــى قتـــل كليـــب بلظـــى من ورائـــى ولظـــى مســـتقبلى

يقع تشابه أطراف بين «خصنى قتل كليب الدهر برزء معضل وفى قوله «خصنى قتل كليب بلظى» مجاز عقلى حيث أسند الفعل إلى القتل، فالعلاقة هنا السببية كما نجد أن الشاعرة لأول مرة تذكر اسم زوجها بالاسم المظهر بدلاً من المضمر منذ بداية القصيدة، ذلك أنها مسكونة بالحزن الشديد لفقده، وهى زفرة من زفرات الفقد التى عاشتها، كما نجد فى قولها «لظى من ورائى ولظى مستقبلى» طباق وتوكيد لفظى ومعنوى فى تكرار «لظى» وفيها كناية عن أثر القتل الذى أشعلته النار فى أحاسيسها وفى البيت السادس عشر نجد «جليلة بنت مرة» تبكى بكاء حاراً وتقول:

١٦ ليس من يبكى ليومين كمن يبكى ليوم ينجلى

فاليومان الذى تبكى فيهما الأول كناية عن مصرع زوجها الذى مضى وانكشف أمره، والثانى كناية عن مقتل أخيها جساس الذى تنتظره فى قلق وخوف.

وبين «يومين ويوم» مراعاة نظير، وعلاقة تلازم وبين «يبكى» فى الشطر الأول «ويبكى» فى الشطر الثانى تكرار لفظى ومعنوى يؤكد المعنى ويقويه. وفى استعمالها الأفعال «يبكى وينجلى» تفيد التجدد والحدوث لأحزانها.

اللوحة السادسة:

١٧ يشتفى المدرك بالثأر وفى دركى ثأرى ثكل المثكل

١٨ ليته كان دمى فاحتلبوا بدلا منه دماً من أكحل

١٩ إننى قاتلة مقتولة ولعل الله أن يرتاح لى

وفى ذروة المأساة التى تعيشها الشاعرة تقول:

إن من يدرك ثأره يشتفى أو يشفى غليله من الأحزان، أما هى ففى إدراكها لثأرها ثكل جديد لها، لأن ثأرها هو أخوها، وتتمنى أن ما حدث كان لها بدلاً منه، ليكون الخطب أهون، كما تتمنى أن يحتلبوا من أكحلها دماً حتى تسدد ما عليها وفى أخر بيت فى القصيدة، وهو بيت القصيد كما يقولون فهى فى نظر الناس قاتلة، ولكنها فى حقيقة الأمر مقتولة، وتتمنى أن يريحها الله

من هذا الصراع النفسى الرهيب.

البلاغة والنقد

فى البيت السابع عشر تقول «جليلة بنت مرة» إن من يدرك ثأره يشتفى، وفى دركى لثأرى سيكون الوبال والمصيبة فنجد بين «المدرك ودركى» جناس اشتقاق، وفى قولها «ثكل المثكل» جناس اشتقاق أيضاً.

وفى البيت الثامن عشر تتمنى لو احتلبوا من دمها بدلاً من دم أخيها، على أن يكون من عرق الحياة حتى تنهى حياتها، فهو أسلوب إنشائى طلبى جاء من التمنى على حقيقته، وفى قولها «احتلبوا من أكحلها» أى نزعوا أو أخذوا منها دماً قطرة قطرة حتى يتجدد لها العذاب والألم مرة بعد مرة، يكون أهون عليها مما تعيشه فى انتظار مقتل أخيها جساس.

ونجد بين «دمى ودما» جناس اشتقاق.

وفى البيت التاسع عشر ختام القصيدة تقول:

إننـــى قاتلـــة مقتولـــة ولعـــل اللـــه أن يرتـــاح لـــى

«إننى قاتلة مقتولة» هذه الجملة اسمية مؤكدة بإن واسمية الجملة، وبين «قاتلة ومقتولة» جناس اشتقاق وفى قولها «ولعل الله أن يرتاح لى» لعل هنا أداة من أدوات التمنى المجازية.

خرجت إلى غرض بلاغى هو الرجاء والدعاء تتوجه به إلى الله كى يدركها برحمته، وفى قولها «قاتلة، مقتولة، يرتاح لى» كلها أفعال تفيد التجدد والحدوث وإثارة الأحزان.

والقصيدة من أولها إلى آخرها صورة صادقة لمشاعر وأحاسيس حزينة صورتها «جليلة بنت مرة».

والقصيدة تعد بكل المقاييس تحفة نادرة كلما مر عليها الزمن ازدادت قيمتها الفنية وهى من أقدم النصوص الجاهلية التى وردت إليها منذ القرن الخامس الميلادى، فقد سبقت الخنساء وليلى الأخيلية فى هذا الفن.